وتأخرت الى الضحوة الكبرى فألفيت سرادق الامارة غاصا بالناس وكذا الفجوة التي أمامه ولو لم يزني بعض من يعرفني هنالك لما تيسر لي اختراق ذلك الجمع الكثيف، والنفوذ الى المجلس الهاشمي الشريف ، ولكن رآني من فرج لي فرجة بين الناس دخلت منها الى أن بلغت الحلقة الكبيرة وجلست على كرسي أخلي لي فيها، وكان الناس من مصريين ومكيين قد شرعوا في إلقاء الخطب والقصائد في التهاني والادعية، فرأيت أن ألقي خطبة في بيان الحقيقة التي عرفتها بالبحث والاختبار ، والآراء التي أنتجتها تلك الافكار، أشير فيها الى آراء الناس من الحجازيين والآفاقيين وكنت قد بلوت أخبارهم ، واكتنهت معرفتهم وانكارهم، وأذكر ما لدي من الرأي في المسألة الحجازية وما يشترط في ذلك بقدر ما يسعه المقام، فلما فرغ من كان يتكلم قبل مجيئي استأذنت فأذن لي فقمت وقلت ما ملخصه كما نشر في جريدة القبلة

وكل ما يوضع فيها بين الاهلة هكذا ( ) فهو من قبل جريدة القبلة كما هو ظاهر الا الآيتين الكريمتين : في أولها فهما من أصل الخطبة

خطبتنا السياسية في منى

أيها المسلمون الكرام ، من سكان حرم الله وحجاج بيته الحرام ، انكم تعلمون أن الاسلام دين سيادة وسلطة ، وأن شريعته أنزلت ليقيم أحكامها أهله ، لقوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الامر منكم) على التأويل المشهور للآية وتعلمون أن الله تعالى قد جعل هذا الدين عربيا اذ أنزل القرآن الذي هو أصله وأساسه باللغة العربية على لسان النبي الامي العربي محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وقد بين الله تعالى ذلك بقوله (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) فهذه الآية أخص من الآيات الناطقة بانزال القرآن عربيا، لانها مصرحة بأن حكم هذا الدين عربي ، مع العلم بأن كتابه المتعبد به عربي . وهذه البلاد العربية هي مهد هذا الدين ومهبط وحيه ومشرق نوره، وكان أهلها هم السابقين الى تلقيه والاهتداء به، ثم تبعهم فيه غيرهم من عرب الحجاز فسائر هذه الجزيرة العربية . ثم حمله العرب الى سائر الاقطار ونشروه فيها ، فامتد في الجيل الاول منهم حتى عم نوره الشرق والغرب ، وأروا

الامم باقامة أحكامه من العدل والرحمة ما لم يعرفوا ولم يسمعوا له نظيرا كما اعترف بذلك المنصفون من الافرنج وغيرهم

ثم طرأ الضعف على السلطة الاسلامية بتفرق الوحدة العربية الكافلة لها، وتغلغل الاعاجم في الدول الاسلامية التي تعددت بسبب ضعف سلطة الخلافة . فبعد ان كانت الفتوحات الاسلامية في مد لا جزر معه، صارت دول الطوائف الاسلامية بين مد وجزر، وقوة وضعف، حتى وصلت الدولة العثمانية منها الى درجة عالية ، ومكانة سامية ، من القوة الحربية وسعة الفتح والتغلب ، فسر بها المسلمون ورضي بعض حكامهم المستقلين بسيادتها طوعا واختيارا، كما دخل بعضهم تحتها اضطرارا، وقد كان امراء مكة العظام أهل بيت سيدنا هذا (وأشار الخطيب الى جلالة ولانا الامير) في مقدمة من أيد هذه الدولة واعترفوا بسلطتها وسيادتها، لاجل جمع كلمة المسلمين بها واعلاء شأن الشريعة الاسلامية بنفوذها (هنا قال جلالة سيدنا للخطيب صدقت)

ثم ان هذه الدولة قد سرى اليها الضعف ودب اليها الوهن من زهاء ثلاثة قرون. واني أذكر لكم بعض الشواهد على ذلك من تاريخها الرسمي منذ مئة سنة ونيف

ان محمد علي باشا الذي كان واليا للدولة على مصر قد زحف على سورية ففتحها، ثم على الاناضول فتوغل فيها، ولولا أن الدولة الانكليزية أكرهته على الرجوع الى مصر لاستولى على بلاد الدولة كلها . وكان ذلك على عهد السلطان محمود الذي كان يعد مصلحا في الدولة ومجددا لها بقضائه على عسكر الانكشارية المختل وادخاله نظام الجندية الاوربي في الدولة

تولى السلطان محمود السلطنة في سنة ١٢٢٣ وتوفي سنة ١٢٥٥ فخلفه السلطان عبد المجيد الذي صرح في خطابه عند اعلان « التنظيمات الخيرية » في كلخانة بأن الضعف والخلل قد طرأ على الدولة منذ ١٥٠ سنة وأنه لا بد من تلافي خطر ذلك بالنظام الذي أعلنه بتدبير أساطين الدولة في عهده . ولكن ذلك النظام لم يعد الى الدولة قوتها، ولا أنقذها من الخطر الذي كان يخشى عليها. ودليل ذلك أن أركان الدولة قد خلعوا أخاه السلطان عبد العزيز الذي خلفه سنة ١٢٧٧ وقتلوه أو ألجأوه الى بخع نفسه بيده سنة ١٢٩٣ بحجة أن استبداده كان حائلا دون اصلاح الدولة وتجديد شبابها . وولوا بعده السلطان مرادا ولم يلبثوا أن خلعوه في تلك السنة وولوا

بعده السلطان عبد الحميد الذي كان عاهدهم على العمل بالقانون الاساسي الذي قلدوا فيه الدول الاوروبية ظنا منهم بأنهم لا يعتزون الا بما اعتزت به من الحكم النيابي

وأما سيرة السلطان عبد الحميد فهي معروفة عندكم لان العهد بها قريب ، وقد خلعته جمعية الاتحاد والترقي بقوة جند الدولة واعتقلته، وتولت الجمعية السيطرة على الدولة بعده ، فماذا كان من أمرها ؟ هل كانت خيرا من أولئك السلاطين العظام الذين لم يقدروا أن يصلحوا ملكهم الذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ؟ كلا ان زعماء هذه الجمعية الذين غلبوا الدولة على أمرها هم أو شاب من الملاحدة المارقين قد وصلوا الى ما وصلوا اليه بكيد يهود سلانيك وشركائهم في النمسة وألمانية أقوى أنصارهم ولذلك نرى أكبرهمهم جمع المال . فلا هم على دين هذه الدولة فيغاروا عليه ، بل هم يقاومونه ويهدمونه ، ولا هم من أصل راسخ فيها فيكونوا أحرص على حياتها من أبناء سلاطينها وأساطينها

واذا نظرنا الى أعمالهم دون عقيدتهم وآرائهم نرى أنهم قد فعلوا في الدولة من الافساد والتخريب ما لم يفعله غيرهم فيها منذ أصيبت بالضعف الى أن أصيبت بهم

ثبت أنهم أخذوا من مال الدولة لنظارة الحربية خمسين مليون جنيه ليجددوا قوتها العسكرية ، ثم رأينا دولة البلغار — التي كانت ولاية من ولايات الدولة ولم يتم لها الاستقلال الا في عهدهم — قد كسرت جيوش الدولة وكادت مدافعها في شطلجه تمزق مسامع أهل الآستانة . وكان السبب الحسي لذلك قلة ما عند الجيش العثماني من المؤنة والذخيرة والدواب وسائر أسباب الحرب

وقد خسرت الدولة في عهدهم المشؤم من الممالك مالم تخسر مثله في عدة أجيال : خسرت البوسنه والهرسك بيع الجمعية اياها للنمسة، وطرابلس الغرب وبرقة بيعها اياها لايطالية ، ومكدونية وألبانية وكريت وجزائر الارخبيل، ونسكت عما خسرته في هذه الحرب من الولايات — فقد أضاعوا نصف الدولة في بضع سنين، وحملوها فيها من أثقال الديون ما لم تحمل مثله قبلهم في بضعة قرون . ثم عمدوا الى الامة ، فأفقروها كما أفقروا الدولة . فهذا هو الاصلاح الذي خلعوا لاجل القيام به سلطان الدولة وخليفتها عبد الحميد وحجروا على خلفه من بعده

فيا أيها المسلمون الغيورون المبهورون ! اذا كان قد ثبت من تاريخ الدولة الرسمي بما ذكرته لكم من شواهده أنها كانت ضعيفة يخشى عليها الزوال قبل هذه الارزاء والمصائب التي منيت بها شؤم هذه الجمعية ، فكيف يكون حالها الآن وقد اصطلت بنار هذه الحرب ، وتعرضت لعداوة أكبر دول الارض ؟

ان سواد المسلمين الاعظم يغارون على هذه الدولة ويتمنون لها دوام الاستقلال وكمال القوة للسبب الذي بيناه في فاتحة الكلام، ولكن يقل في المسلمين من يعرف حقيقة حالها وكنه الخطر المحاق بها . ويقل فيمن يعرف ذلك من يسعى لتدارك ما يترتب على هذا الخطر اذا وقع من فقد الاسلام لما بقي من أحكام شريعته ، وحرمان المسلمين من آخر ما كان لهم من الاستقلال السياسي على علاته

لم نر أحدا من زعماء المسلمين وكبرائهم قدر الحال الخطرة التي وصل اليها الاسلام قدرها وانبرى لتداركها الا هذا الرجل العظيم — أمير مكة وشريفها — فانه . أي أن الدولة — وهو من أعلم أهلها بحالها — قد أمست على شفا جرف، وأن ملاحدة الاتحاديين قد اتخذوا الاحكام العرفية والقوة العسكرية ذريعة للتنكيل بالامة العربية بتقتيل رجال الفكر والعمل ومصادرة أموال أهل الثروة منها حتى لا يبقى فيها رجاء في عامل ولا في عمل، فانتدب لتدارك الخطب ومصارعة الخطر بنفسه الكريمة وأنفس أنجاله النجباء . ولو استطاع أن ينقذ الدولة نفسها من الخطر لفعل، ولو بذل في ذلك دمه ودم هؤلاء الأنجال الكرام (هنا قال الامير حفظه الله تعالى للخطيب صدقت)

لكن العمل لانقاذ الدولة نفسها من الخطر قد أصبح فوق طاقته وطاقة غيره (... صدقت) فرأى أن يبدأ بالمستطاع وهو انقاذ الحجاز مهد الاسلام ومشرق نوره مما نزل به من البلاء والشقاء، ثم انقاذ غيره مما يمكن انقاذه من البلاد العربية، ليكون ذلك بيئة لحفظ الاستقلال الاسلامي وعدم زواله بما يخشى ويتوقع أن يحل بالدولة العثمانية والعياذ بالله تعالى (... صدقت)

لا يخفى على ذي بصيرة ان الاتحاديين ما حشروا الالوف من جيوشهم في الحجاز الا بنية سيئة لانهم يعلمون كما نعلم أن أعداءهم الحلفاء لا يحاولون الاستيلاء على الحجاز ولا يحاربون أهله، فكان من المعقول ان يرسلوا تلك الجيوش الى قتال

أعدائهم الروس واتقاذ ما فتحوه من الولايات التركية ، ولكن التنكيل بالعرب أهم عندهم من دفع الروس عن عقر دراهم . ولو تم لهم ما أرادوا لرأينا من فظائعهم في الحجاز ما هو أشد من فظائعهم في الشام (... صدقت)

نعم ان الحلفاء لا يحاربون الحجاز ولكن وجود الجيوش الاتحادية فيه ألجأهم الى ضرب الحصر البحري على ثغوره فضاقت المعيشة على أهله حتى باعوا حليهم وأثاثهم وأبواب بيوتهم وخشب سقفها ولو طال عليهم أمد ذلك سنة أخرى لا كلتهم المجاعة وما يتبعها عادة من الاوبئة (... صدقت)

أعلن سيدنا هذا استقلال العرب في الحجاز — والحاجة قد اشتدت اليه حتى وصلت الى حد الضرورة - وما كان ليوجد في الامة العربية ولا الامة الاسلامية كلها من آتاه الله من البصيرة والشجاعة والثقة بالله والتوكل عليه ما ينهض به للقيام بهذا العبء العظيم ، ولولا ثقته بالله وتوكله عليه لما تجرأ على ذلك لاننا كنا نعلم أنه لا يوجد في الحجاز قوة عسكرية ولا ثروة مالية يعتمد عليها في مثل هذا العمل (تصديق ..)

كنا نعلم انه لا يوجد في الدنيا كلها مكان يصلح لتأسيس دولة اسلامية تخلف الدولة العثمانية اذا وقع بها ما نخشاه عليها الا جزيرة العرب وما يتصل بها من البلاد العربية لما خص الله تعالى به هذه البقعة وأهلها من الخصائص ، ولا يعقل ان يحفظ استقلال الاسلام في مثل بلاد الافغان إن هو زال من مهده وموطن نشأته ومحل اقامة شعائره . انفردت هذه البقاع الطاهرة المقدسة بأنها أجدر بقاع العالم الاسلامي لاقامة استقلاله . وكذلك انفرد سيدها وأميرها في هذا العصر بالنهوض بما يجب من العمل والاستعداد لتجديد هذا الاستقلال . فكان له بعمله أكبر منة في اعناق أهل هذه البلاد وفي اعناق جميع المسلمين الذين يشعرون بأن أمر هذا الاستقلال هو أهم المصالح العامة الدينية والاجتماعية . ولكن منهم من فقد هذا الشعور

أيها الحجازيون ان من يكفر منكم لهذا الرجل المصلح المنقذ هذه النعمة فهو أكفر الناس للنعم . أيها المسلمون يجب ان تعلموا ان هذا العمل أعظم خدمة للاسلام في هذا الزمن . فان الدولة العثمانية ان سلمت من السقوط وحفظ استقلالها لم يكن استقلال العرب في الحجاز وغيره ما نعا من ذلك ولا من تعاضد العرب والترك مع

حفظ حقوق كل منهم . وان سقطت وفقدت استقلالها لم يكن هذا الاستقلال هو السبب فيه ولكنه يكون سببا لحفظ استقلال الحكم الاسلامي في أشرف بقاع الاسلام، بل لا يغيب عن أذهانكم انه لولا اعلان هذا الاستقلال لترتب على سقوط الدولة العثمانية وقوع حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم غنيمة في أيدي الدول الفاتحة . فان تركوهما بعد ذلك لنا كان لهم منة التصدق بهما علينا . والا كانا تحت سيادتهم والعياذ بالله تعالى . وبهذا يتبين لكم ان هذا العمل العظيم ، الذي قام به هذا الزعيم العظيم ، قد أنقذ الحرمين الشريفين وما حولهما من هذا الخطر الجسيم . ووضع أقوى أساس لحفظ الاستقلال الاسلامي بانشاء دولة جديدة له . فله بهذا أكبر منة على جميع المسلمين . وما أقول هذا تملقا له ولا مدحا شعريا، وانما هو الحقيقة البيضاء الناصعة بينتها لكم بالايجاز الذي يحتمله المقام والسلام اه الخطبة

قالت جريدة القبلة معقبة على هذه الخطبة ، : « وبعد أن جلس (أي الخطيب) أثنى عليه جلالة سيدنا أيده الله بروح من عنده وقال للناس انه لم يره الا منذ أيام قليلة » وتزيد عليها أنه قد صرح بأنني عبرت في المسألة عن فكره ورأيه ولم يسبق له مكاشفتي به وانه لم يرني الا منذ أيام قليلة وهو صادق فيما قال ، وانني ما كنت أرجو أن يرضيه خطابي إلا من باب حسن الظن فيه الذي استنبطته مما كنت أعلم من سوء نية جمال باشا وأعوانه ومن منشوريه الدالين على قيامه بما قام به في الحجاز لاجل الداعية التي وصلت الى حد الاضطرار ، وانها ضرورة تقدر بقدرها ، وهذا هو الحكم الشرعي في مثلها ، وقد جعلتها مقدمة للسعي الى ذلك .

وأقول ان وقع الخطبة قد كان حسنا في سمع الجمهور ، وكانت موضع حديث الناس وثنائهم ، حدثني بذلك الكثيرون في منى ثم في مكة ، وقد علمت أنها جمعت بين إرضاء الفريقين المتعارضين في الرأي — فريق المتشائمين من ثورة الحجاز الخائفين ان تكون سببا لضعف الدولة العثمانية وزوالها ، على حين لا استعداد لانشاء دولة اسلامية تحل محلها ، وفريق المتفائلين الذين يرجون ان تكون مبدأ دولة عربية مستقلة تحيا بها حضارة العرب الزاهية الزاهرة ، حتى ان أصحاب فكرة المبايعة كانوا يرجون عند سماع الخطبة ان تكون مقدمة للمبايعة .

زارني بعد نزولنا من منى الى مكة الشيخ عبد الملك الخطيب أحد أدباء مكة المقربين من الحضرة الهاشمية — وقد تقدم ذكره في هذه الرحلة — فكان جل حديثه الثناء على الخطبة، وقال انني كنت في الحضرة الهاشمية أذكر محاسنها وأنوه بها وان سيدنا وافقني على ذلك وساهمني فيه، ثم ذكر انه كان ينقصها شيء واحد ، قلت بل ينقصها عندي أشياء ولكن الوقت لم يكن يتسع لا كثر مما قيل ، قال : لم أعن ان في الخطبة نقصا بل هي كاملة ، وانما كان ينقصها ان تكون مقدمة للمبايعة ، فلو انك بعد إتمامها مددت يدك وبايعت سيدنا لاتبعك الناس وكان أمرا مفعولا ، قلت ان هذا ليس من رأيي ولا من حقي، وما يؤمنني ان يقال لي ما قيل لذلك الشاعر الذي قال

وهذا النوم من عيني فاني قد خلعت الكرى على العشاق

فقيل له خلعت مالا تملك على من لا يقبل ؟ وبهذا حولت المباحثة السياسية الي مفاكهة أدبية

هذا — وانني قد تشرفت بعد ذلك بحديث مع الحضرة الهاشمية في موضوع الخطبة، فكان مما قال الامير ان المسألة الجوهرية في الخطبة هي ان الدولة العثمانية على خطر وأنا موافق لك على هذا الرأي من قبل الحركة ولكن أكثر الناس أو المسلمين لا يعقلون ذلك . وقد عرضت عليه في هذه الجلسة شيئا من خلاصة رأيي في المسألة العربية، وما يجب اتخاذه من الاحتياط في مسألة الدولة، على الوجه الذي أشرت اليه في خاتمة الخطبة، فأظهر لي الاستحسان ، وأحال على الزمان ، وقراء المنار يعرفون رأيي مما بسطته في المقالة التاريخية (المسألة العربية) التي نشرتها في الجزء الاول من المجلد العشرين ، ومنه ان الثورة الحجازية قد أدت وظيفتها، وأفادت ما رجوناه منها. فأنقذ الحجاز، وأوقفت بغي البغاة، وأحمد الله انني كنت أسعى الى تنفيذ هذه المقاصد، على تلك القواعد ، وانني الآن معتزل لاعمال السياسة وأهلها، منتظر حكم العزيز الحكيم في أمر أمتي والشعوب كلها.

﴿ ترجمة الشيخ سليم البشري ﴾

بقي مما ينبغي أن يذكر في ترجمته ما انفرد به دون أمثاله من شيوخ الازهر كانكاره كتابة على الدولة العثمانية الفتك بالارمن في أمانة — وكرئاسته لاحتفال اللجنة السورية التي عقدت في دار التمثيل الامريكية لاعانة طلبة العلم السوريين في الازهر — تلك اللجنة التي قال في حمدها بحق انها مسيحية ليس فيها الا مسلم واحد تسمى لاعانة مسلمين ليس فيهم نصراني واحد — وغير ذلك من الامور المدنية العصرية، ولم يتيسر لناجم ما كتب في ذلك بوتته من الجرائد ، ولم يذكر أحد في ترجمته